الدكتور

محي الدين الآلوائي

الإسلام والقضايا الإنسانية

سلسلة الثقافة

الإسلامية

٥٢

سلسلة الثقافة الإسلامية

المجموعة تصدر في ستة كاملة

المراسلات والتعامل باسم

المشرف المسئول

محمد عبد الله السمان

القاهرة : ص . ب ١٦٢١

ت ٩٨٤٢٠١

دار الثقافة العربية للطباعة ت ٩١٦٧٢٤ .

بســــــــــــــم الله الرحمــــن الرحيـــــم

كلمـــة أولـــى

بعون الله وحده – تعود ، سلسلة الثقافة الإسلامية ، اليوم إلى الوجود ، والأمل في الله وحده أيضا ، أن يكتب لها التوفيق لتواصل رسالتها المتواضعة في خدمة الثقافة الإسلامية الواعية .

"ومن يتوكل على الله فهو حسبه . . . . إن الله بالغ أمره "

محمد عبد الله
السمان

لعدد الثاني والخمسون

المؤلف هو الأستاذ الدكتور "محي الدين الألوائي" أحد علماء الأزهر ، فقد تلقى العلوم الإسلامية والعربية في مسقط رأسه بالهند ، ثم رحل إلى القاهرة ليحصل على شهادة العالمية مع الإجازة من كلية أصول الدين بالأزهر عام ١٩٥٣ ، وما أن عاد إلى الهند حتى عين مذيعا باللغة العربية في إذاعات عموم الهند بدلهي ، ومرة أخرى عاد إلى القاهرة في عام ١٩٦٣ لاستكمال دراسته في قسم الدكتوراه ، فانتدب لتدريس مادة الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية ببعض كليات الأزهر ، كما اختير محررا للقسم الإنجليزي بمجلة الأزهر ، ثم تقدم برسالة لنيل الدكتوراه موضوعها "الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية" ليكون هذا الموضوع عونا على فتح باب جديد في دراسة الأديان القديمة : الوضعية والسماوية ومقارنتها لمعرفة الدور المهم الذي قام به الدعاة المسلمون في نشر الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية وحواليها في مختلف العصور .

أما الموضوع الذي اختاره أخونا المفكر الأديب ، فهو موقف الإسلام من مشكلات العالم المعاصرة ، وهو موضوع جدير بالرعاية ، وبخاصة في وقتنا هذا حيث يواجه الإسلام تحديات من شتى الجبهات الإلحادية والصليبية على السواء . . . إن الدكتور طاقة من النشاط للفكري في المجال الإسلامي ، لا تخبو ، ولا تعرف الاسترخاء ، وأرجو أن يجد القراء في دراسته الموجزة هذه ما يجعله جديرا بحسن ظنهم فيه..

محمد عبد الله السمان

تمهيد

إن العالم اليوم قائم على فوهة البركان ، وزاخر من التقلبات وملء بالأخطار ، وحائر بين أطماع الدول الكبرى ومائج في أنواع من الكروب ، ومؤجج في سعير الحروب بين الشعوب . كل هذا وذاك لا طلبا لكمال إنساني ، ولا تحقيقا لأخوة إنسانية ، ولا لإقامة عدالة اجتماعية ، بل لسيادة صفوف من الناس ، ولتحقيق أغراضهم الشخصية ، ولنيل منافعهم الذاتية ، وتنفق ثروات الأرض كلها ، وتصرف القوى الإنسانية بأجمعها في سبيل اختراع القنابل الذرية و"الهيدروجينية" .

لماذا هذا كله ؟ ؟ . . ليبلو بعضهم بعضا أيهم أشد فتكا للملايين من الجنس البشري في أقرب فرصة ؟ ؟ وأيهم أحسن تدميرا للعالم الإنساني مع حضاراته ومدنياته ؟ ؟ فتمنح الأوسمة الفخرية ، والرتب السامية للذين كانوا أشد فتكا لملايين الأبرياء والضعفاء ، وأبعد من الإنسانية في ساحات القتال ، وأجهل للمبادئ الحربية السليمة .

إن هذا لشيئ عجاب ! !

قد انقلبت اليوم معاني كلمات "الحضارة" و"الثقافة" و"العلم" و"السلم" و"الرجعية" رأسا على عقب .

إن الحضارة في القاموس العصري الجديد هي عبارة عن الانغماس في توفير الوسائل لإتمام الشهوات البهيمية ، والأهواء النفسية ، وتركيز الهمم في جمع جميع أنواع النفاق والرياء والخداع والمكر ! ! . .

وأما الثقافة فعبارة عن الاستهتار التام بالأخلاق السامية ، والتقاليد الإنسانية العليا ، مع تمام الاستعداد والمهيئات لإثارة الشهوات العجماوية ، وإثارة الفتن والفساد في المجتمع ، ونشر الفوضى والجرائم الخلقية في البلاد .

ويراد بالعلم ، . . الآن ، إعداد الإنسان لأن يكون آلة كيماوية وجهازا ميكانيكيا لإنتاج الأسلحة الفتاكة للإنسانية ولتهيئة أسباب التمتعات البهيمية ، ووسائل الخداع والمكر .

والقاموس الحديث لا يقف عند هذا الحد في قلب الأوضاع ، بل هو يفسر "الرجعية" بأنها هي الدعوة إلى تنمية القوى الروحية ، أو الروحية والمادية معا ، وكذا الادعاء بأن للإنسان حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، والدعوة إلى الإيمان بالخالق ، والبعث ، والثواب ، والعقاب في الآخرة ، وكذلك الادعاء بأن ميزة الإنسان ليست في تقوية القوى المادية والبهيمية فقط ، بل في تقوية قواه الروحية والمعنوية أيضا . ولا يلبث هذا القاموس أن يلقب كل من يدعو العالم الإنساني إلى هذه المبادئ السامية وهذه المثل العليا بألقاب متنوعة "كالرجعي" و "الجامد" و"البدوي" وأخيرا "الجاهل" الذي لا يعرف العالم ولا "المدنية"! !

إن العالم الإنساني اليوم ينتظر بفارغ الصبر وينظر شاخصا بصره إلى منقذ ينقذه من الدمار والفناء المنتظرين ، ومن ضلال المادة وانتشار الإلحاد في الجنس البشري في المشرقين والمغربين . فإذا نظرنا بعين التحقيق والاعتبار إلى تطورات العالم منذ البداية ، نجد في صفحات تاريخية أن هذه الحيرة ، وهذا التوتر الدولي ليسا ببدع في تاريخه ، وفي تاريخ البشرية ، فأحسن وأقرب مثل لحيرته الأخرى التي تشبه كل الشبه للحيرة الحاضرة ، هو ما كان يشهده العالم وقت بعثة محمد بن عبد الله – صلوات الله عليه – بشريعة إلهية ، وكتاب مقدس سماوي دستورا خالدا عاما صالحا لكل أمكنة وأزمنة ، وبينا في مبادئه وأحكامه وهدايته وإرشاده ، ومكملا لحلقات مسلسلة الأديان والأنبياء والرسل .

فكان العالم حينذاك في صراع مرير بين الشرق والغرب ، بين الفرس والروم ، والتكالب الدائم على سيادة العالم ، وحروب في إثرها حروب ، وكروب تتبعها كروب ، فغطرسة كسرى خربت الشرق وكبرياء قيصر خربت الغرب ، كل أهدافهم الجلوس فوق

أبراج السيادة ، واستغلال المحكومين ، ثم يلقون الشعب إلى ضنك من العيش ، وضيق الحياة ، حتى أهدرت آدميتهم في سبيل شهوات كسرى وقيصر ، ولقد غشى العالم فساد شامل واضطراب عام ، ومن ناحية أخرى أفسدت الوثنية العالم العقلي بعبادة الحجر والشجر والبشر ، واعتقلت حريات الفكر ، وعطلت المواهب الإنسانية وأجج سعير الحروب بين الشعوب لأمور تافهة ، لا طلبا لكمالات أو تحقيقا لمبادئ . . . وفشت الطبقات والعصبيات في قلوب الطوائف ، فأشراف الناس هم سادتهم ، وفي أيديهم الجاه والسلطان ، وعندهم ذهب الدنيا وكنوزها ، وصنوف من الناس في الفقر والحرمان والجهل والاستعباد ، فكانت الإنسانية بيد هذه العوامل المخربة والمدمرة ، والعادات الهدامة – تنادي ربها ، وتستغيث بربها :

"يا رب تدارك عبادك بوسائل الأمن والإصلاح ، لقد فسدت الأرض كلها بما كسبت أيدي أهلها ، فبعث خالق البشر ومالكهم ، بعث محمد بن عبدالله عليه السلام بدستور منه ليخرج الإنسانية من الظلمات والجهل والفساد إلى نور العلم والصلاح ، ليهذب الأخلاق الفاسدة وليصحح الأوضاع المقاوبة ، ورحمة للعالمين . فخلق – بفضل ذلك الدستور السماوي خلال بضع سنين من الأمة المتوحشة المتخاذلة الجاهلة المتخالفة – أمة متحضرة مثقفة متعلمة متحدة ، فسادت العالم هذه الأمة بفضل سياستها وحكمها وأخلاقها ومعاملاتها ، وخضعت أمامها أمبراطوريتا كسرى وقيصر وسار ملوك العالمين نحوها ، وظهرت في ظل سيطرتها مظاهر العزة والحصن الحصين ، وتمت لها الزعامة العالمية ، واستقر لها في البر والبحر السيادة والقيادة العادلتان ولو لمدة وجيزة .

أريد في هذه الرسالة أن أتجول تجولا سريعا حول الأسس والمبادئ والقوانين التي خلص بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ذلك العالم الحائر المضطرب ، وأن ألقى نظرة عامة حول موقف الإسلام من المشاكل التي يواجهها العالم اليوم ، لأنه ما أشبه الصراعين العالميين في الوقت الحاضربين الشرق والغرب، بالصراعين الدوليين إذ ذاك بين الفرس والروم !! .

وقد زاد الطين بلة اليوم استعداد رهيب لذبح الملايين من الجنس البشري وحصدهم بأسرع الأسلحة الفتاكة – فما أشد احتياج العلم إلى السلاح الذي أصلح به رسول الرحمة تلك الأوضاع المقلوبة ، وخلص النوع الإنساني من مخالب الحرب والدمار والاستعمار والاستعباد – إنه لا يخلص هذا العالم القائم على فوهة البركان إلا سياسة السلام والتعاون المبنية على مبادئ الأخوة الإنسانية التي دعا إليها جميع الكتب السماوية ، وأتى بها الأنبياء والرسل في جميع الأمكنة والأزمنة ، وهي التي ساس بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا . وساد الأمن والنظام والطمأنينة والجنس البشري ، وعمت الرفاهية والسعادة في ربوع البلاد ، إلى أن تسربت عوامل الانحلال الخلفي ، وفساد النظام . . إلى كيان تلك الدولة .

وليس يصح في الأذهان شيئ

إذا احتاج النهار إلى دليل

محي الدين الألوائي

الإسلام والمبادئ

مبادئ قام عليها الإسلام

هذه أهم المبادئ التي قام عليها الإسلام وخلص بها العالم الإنساني من العبودية الفكرية والاعتقادية ، والاختلافات الطبقية ، وانقذه من الجهل والفقر ، فأبعد عنه ويلات الحروب ، وشدائد الكروب :

أولا – صقل العقول الإنسانية بالإيمان بوجود صانع لهذا الكون ، والتوحيد في هذا الصانع الخالق العالم بجميع الأمور ، فلا يجري أمر في هذا الكون إلا بقضائه وأمره ومشيئته وإرادته ، وهو علام الغيوب ، وبتطهير العقول من أدران الخرافات والخزعبلات ، ونبذ كل ظن في إنسان ، أو أي مخلوق آخر علويا كان أو سفليا ، بأن يكون له أثر في الكون من نفع أو ضر .

ثانيا – فتح باب الشرف والكرامة والسمو للأنفس كلها ، فلكل نفس حق السمو إلى الكمالات الإنسانية ما استطاع إليه سبيلا ، ومحق امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف ، فلا تفاضل من الأفراد والجماعات إلا بالفعل الصالح العام لخير الإنسانية كلها ، ولا فخر لأحد على آخر ولا فضل لعربي على عجمي ولا للأبيض على الأسود إلا بالتقوى ، ولا حكم لأحد على أحد إلا تنفيذ أحكام خالق البشر ، وتطبيق القوانين الإلهية ،" الناس سواسية أمام القانون الإسلامي ."

يقول الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام : "لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أبيض ، فالناس كلهم سواسية كأسنان المشط" .

ويقول القرآن الكريم : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير " . ثم يحدد فضل الإنسان مهما بلغ في

الكمال النفسي ، والمالي والعملي وغيرها في دائرة سعيه ، فيقول : "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى " .

ثالثا – تقويم الإنسان بالكمال الروحي والنفسي معا ، فلا يكتفي الإسلام بأحد الكمالين دون الآخر ، بل يوجب على العالم الإنساني كله أن يصل إلى كمالي الروح والنفس ، لأن الإنسان في نظر الإسلام مركب من شيئين "الروح والنفس" فلا تكمل الإنسانية إلا بالكماين معا .

رابعا – تعليم جميع طبقات الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم ، لا يترك فردا من الأفراد ، ولا طائفة من الطوائف إلا أوجب عليها طلب العلم والتثقف بثقافات إنسانية عليا ، إيجابا لا مفر منه أمام حكم الإسلام ومبادئه ، ويقول الرسول الأكرم عليه السلام : "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " وهذا التوجيه يشمل كل مسلم ومسلمة بدون قيد ولا شرط ولا استثناء ، ثم يقول : "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " فيتبين من هذا وذاك أن مهمة الإسلام – أولا : وبالذات تثقيف العالم الإنساني بثقافة فاضلة وتربيته تربية عالية ، وطبعه على الأخلاق المحمودة ، فيعلن القرآن الشريف غرض بعثة محمد عليه السلام بدستور إلهي إلى العالم الحائر المضطرب بقوله : "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " وعلى هذه الأركان الأربعة بنى صرح الإسلام ، وبها خلص ذلك العالم الزاخر من المشاكل المحيطة به ، والأخطار . ولكل ركن منها الأثر البالغ في تقويم المدنية ، وتشييد بناء النظام ، وتدعيم السعادة الإنسانية ، إن معيار الرقي والانحطاط في العالم الإنساني هو التمسك بهذه العناصر أو عدمه بشكل أو آخر .

***

الإسلام والإنسانية

القول الفصل في هذا الموضوع هو أن الإسلام دين الإنسانية كلها في جميع الأقطار والأطوار ، وأن للإنسانية تطورات ومراحل كما للإنسان تطورات ومراحل من طفولة وكهولة وشيخوخة ، فيكون الدين الذي يجيء به نبي من الأنبياء في دور من الأدوار الإنسانية صالحا لذلك الدور الذي وصلت إليه الإنسانية في ذلك الوقت ، ومحققا لمطالبها وأهدافها في ذلك الدور ، لأن الدين في نظر الإسلام نظام الحياة البشرية في جميع مرافق الحياة ، مع أن مهمة كل دين أولا وبالذات تصفية الأديان السابقة مما علق بها من خرافات وخزعبلات بأيدي المغرضين أو الجهال أو المخرفين ، ولبعد الناس عن تعاليمها الحقة ، إما لفقدان المصلحين المرشدين أو لقلتهم ، أو للعناد والجماح من البعض الذين يتبعون الشهوات والأهواء . ومن هنا يتضح أن الديان كلها حلقات متكاملة متراصة متكاتفة في سلسلة الأديان ، فالدين الذي جاء به محمد بن عبد الله عليه السلام هو آخر حلقة من حلقات الأديان في الإنسانية ، بدليل أنه لا يخفى على من تصفح صفحات الكون ، ونقب في أرجاء الأرض ، أن الكون كتاب الله المختوم ، كما أن القرآن كتاب الله المرقوم . وأن الأديان السماوية في مختلف عصورها كانت مهمتها – بعد التصفية المذكورة – تكميل الإنسانية بمبادئ تحفظ جميع مصالحها وتحقق أهدافها وتدفعها عن سائر الأخلاق السيئة ، وتحثها على جميع الأخلاق الفاضلة ، كل هذا بقدر ما تطيق الإنسانية في ذلك الدور الإنساني وفي تلك البيئة حتى وصلت الإنسانية إلى قمتها في الرقي العقلي والوعي الإنساني ، فيكون الدين الذي يبعث به رسول الله في ذلك الدور – دينا وصل إلى قمة الأديان في صلاحيتها وموافقتها لجميع التطورات الإنسانية وأدوارها وبيئتها وأقطارها ، ويكون فيه حل لمشاكل العالم ، لأن الله سبحانه وتعالى قد بعث النبيين والشرائع جميعا برسالة واحدة في جوهرها وأصولها وغاياتها فيقيم منهم اللاحق دينه ورسالته على بناء من سبق فيصدق اللاحق منهم للسابق ويمهد للاحقه – هذا خاص بغير آخر الأنبياء من سلسلتهم – كما بين القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله : "وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا ،

قال فاشهدوا (كل منكم لكل منكم) وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض " .

فأما مسألة وصول الإنسانية إلى قمتها في زمن بعثة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من الرقي العقلي والروحي ، وإلى ذروة شبابها من الفتوة والقوة ، وإلى منتهى استعدادها لتحمل رسالة منظمة كاملة شاملة صالحة لكل أزمنة وأمكنة ، فيظهر ويتبين لكل من له إلمام عن حالة التطور الإنساني في بقاع الأرض كلها ، وعن مدى رقي الإنسانية في القرن السابع الميلادي ، ويضاف إلى ذلك أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة تجمع البشر كله وتقود الإنسانية كلها بدستور صالح لكل البيئات والتطورات وفي جميع مرافق الحياة ، ومتكفل بمصالح الإنسانية في المعاش والمعاد ، ثم تكفل بحفظه للناس كافة خالق البشر سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة ، بقوله في القرآن : "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " . ولم يتكفل بهذه الكفالة لأية حلقة من حلقات الأديان قبل دين محمد عليه السلام ، فإذا كان هذا شأنه فهو حرى بأن يكون خالداعاما ، وآخر حلقة من سلسلة الأديان ، وأن يكون رسوله آخر نبي من سلسلة الأنبياء عليهم السلام .

وكل هذا غير خاف على كل عقل متدبر ، وقلب واع وبصر حاد وفهم سليم : "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض " .

جاهلية أدهى وأمر

إن المشاكل المحيطة بالعالم الإنساني اليوم أدهى وأمر من تلك المشاكل التي كانت تحيط بالعالم البشري – في كل ناحية من نواحي الحياة البشرية .

في العصور الأولى ، مثلا : إذا كان القتال في الجاهلية الغابرة لأجل الدفاع عن القبيلة أو عن فرد من أسرتها ولحفظ كرامتها وعرضها كلما يتعرض فرد من قبيلة أو من أسرة لانتهاك حرمته وكرامته وعرضه ثار جميع أفراده على المنتهك للحرمات والمعتدى على سيادتها وكرامتها ، فلا يكون لأحد منهم في معظم الأحيان والحالات هدف ولا مطلب إلا حفظ الكرامة الإنسانية ، وإقامة العدالة الاجتماعية والدفاع عن حرية الأفراد والجماعات ، ولا يتسرب إلى قلوبهم إشعال نار الحروب أو بث الفتن وإيثار المصالح الذاتية والأغراض الشخصية ، فكم من حروب تنشب اليوم فتدمر العالم الإنساني ، وكم من كروب تتبعها كروب ، كل هذا وذاك في أغلب الأوقات لمصلحة شخص واحد ، ولإتمام هوى نفس واحدة ، مع أن حرب ساعة في العالم الحاضر تعادل حروب سنين عديدة في العصر الماضي ، بل أكثر وأشد ، لأن الأسلحة الحربية هناك كانت أقل فتكا وأخف تدميرا .

ومن ناحية اخرى أن الجرائم التي كانت تنتشر في أيام الجاهلية ، والفظائع التي كانت ترتكب فيها أقل انتهاكا للحرمات الإنسانية ، وأخف ضررا على المجتمع البشري من الجرائم والفظائع الخلقية الشنيعة المنتشرة في البلاد المتحضرة المزعومة ، مع أن الجاهليين الأولين كانوا لا يفخرون بارتكاب الجرائم الوضيعة ، بل وكانوا يعتبرون الفظائع فظائع ، والجرائم جرائم . فأما الآن فكم من شنيعة خلقية ، وجرائم إنسانية انتشرت رسميا في البلاد فصارت جديرة بالفخر مثل الحضارة والعزة والشرف ، ولكن الطريق الذي سيدخلها هؤلاء لتحقيق مطالبهم هي عقل الإنسان وما يصل إليه التفكير الإنساني فقط ، مع أن فطرة الإنسان تأبى أن يخضع لأحد مثله ، أو يطيع لحكم إنسان آخر مهما بلغ من الكمال الإنساني ، إلا للواحد القهار ، الخالق للإنسانية وعقلها ، وانى يكون لهؤلاء القوم مهما طمعوا استعباد

الأمم واستغلالهم واستعمارهم إلى الأبد ؟ فهل وراءهم غرض غير هذا وكيف يستتب السلام العالمي مع هذه الأغراض الفاسدة والمطامع المستعمرة .؟

وكل يدعي وصلا بليلى   وليلى لا تقر لهم بذاك

ا

لسلف والخلف

لماذا استذل المسلمون اليوم ؟

هذا سؤال يمر على قلب كل مسلم متفكر ويخطر ببال كل متدين متدبر ، ويشغل أفكار المصلحين في العالم الإسلامي كله ، وقبل أن نبحث عن أسباب استذلال مسلمي اليوم ، وأن نتعمق الثغرات لتي تسرب منها الانحلال والانحطاط إلى كيان العالم الإسلامي – يجب علينا أن نبحث قليلا عن الوسائل التي صار بها المسلمون القدامى أعزة وأئمة وأصبحوا بمعونتها قادة وسادة ، حتى سيطروا بفضلها على بلاد كسرى وقيصر ، وأرسلوا النور والعرفان إلى بقاع العالم ، وخلقوا جيلا جديدا مثابرا مجاهدا مخلصا شجاعا . وفي ضوء هذا البحث السريع نستطيع الوصول إلى الأسباب الحقيقية لانحلال كيان العالم الإسلامي اليوم وانحطاطه ، ونتمكن من استكشاف الثغرات التي تسرب منها الذلة والخمول إلى المسلمون الخلف . ومن الأسباب المهمة التي اعتز بها المسلمون القدامى ، وكانوا بفضلها أعزة وحكاما :

أولا : اعتصامهم بكتاب الله العظيم ، ففهموا حق الفهم وعملوا بهديه وإرشاداته وطبقوا تعاليمه في شؤونهم جميعا ، ولم ينحرفوا قيد أنملة عن هديه وأحكامه ، لأن القرآن منزل من خالق الإنسانية وعالم بطبائعها ونزعاتها ونزواتها ، ولأن مصور الشيئ وخالقه أدرى بطبائعه وغرائزه وأخلاقه – وكذلك تقتضي فطرة الإنسان أن لا يخضع كل الخضوع ، ولا ينقاد ، ولا يطيع حق الطاعة ، إلا لمن يعتقد فيه أنه أعلم منه وأكبر وأقوى ، فلا يستطيع أحد سوى رب الناس أن يضع قاعدة عامة ، ويقنن قانونا صالحا لطبائع الناس كلها ، وموافقا لفطرة الإنسانية بأجمعها ، سيما قانون عام خالد وصالح لكل زمان ومكان وظروف .

فلا ملجأ للإنسانية إلا بالرجوع في إرادة شئونها الدنيوية والأخروية إلى تعاليم ربها وباريها ، وإرشادات خالقها ورازقها التي أنزلها للثقلين بواسطة رسله الأمناء الكرام لأنه هو وحده العالم بطبائع الخلق كلهم والمطلع على خبايا زواياهم ، والعلام

لما في صدورهم وضمائرهم ، وهذا هو المعنى الذي يشار إليه بقوله تعالى في القرآن الكريم :"تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى " ،

فإذا انحرف قوم عن تعاليم خالقهم ، واتبعوا الأوضاع البشرية ، وهربوا وراء اهوائهم وشهواتهم ، وأكبوا على آراء الناس وأقوالهم . فما بعد ذلك إلا الضلال والخزي والانحلال .

ثانيا : كان المسلمون الأولون عاملين بمقتضى إرشاد الرسول الأعظم محمد بن عبد الله عيه الصلاة والسلام في قوله : "صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس كلهم ، وإذا فسدا فسد الناس كلهم ، العلماء والأمراء ، فكان علماؤهم صلحاء اتخذوا علمهم رائدهم في شئونهم كلها ، وعملوا بما علموا من غير إفراط ولا تفريط ، لم يعرفوا الهوادة والضعف في تنفيذ أحكام الله ، والإظهار بها ، والدعوة إليها ، وكانوا نبراسا للحائرين ، وهداة للضالين وأسوة حسنة للمتقين. وكان أمراؤهم صلحاء ، وقد اعتبروا إمرتهم امانة مقدسة في اعناقهم من عند الله عز وجل ، وجعلوا مهمتهم تنفيذا لأحكام دستور خالق البشر في البشر ، وليس لآرائهم وأهوائهم نصيب ما في إدارة شئون الأمة وسياستها ، فالعلماء يرشدون وينصحون ، والأمراء يهتدون وينفذون ، والأمة عن بكرة أبيها يطيعون للأمراء والعلماء ، فكانوا يدا واحدة ، وقوة واحدة في وجه أعدائهم ، ولم يشموا رائحة الاختلاف والانشقاق ، فلم يتولد فيهم الخونة و"الطابور الخامس" والغرضيون ومشاكلهم .

ثالثا : إنهم كانوا مع وفرة قوتهم وغلبتهم وكثرة عددهم وعُددهم لم يأمنوا من الغوائل ولم يترفوا ولم يتمتعوا بما أتوا من نعم سابغة ، ولم يغفلوا عن دسائس الأعداء الألداء ، وتجسس الخصماء ، وكانوا في كل آونة ، من الحذر والبصر والتنبه ، والتهيؤ والاستعداد ، وكانوا ساهرين على مصلحة أمتهم ووطنهم ، وكانوا يؤثرون المصالح العامة في جميع الأمور على المصالح الخاصة والأغراض الشخصية إذا تعارضتا. ولم يكونوا مبالين ولا متهاودين في التضحية بكل رخيص وغال في سبيل الخير العام ، فلا عجب في فلاحهم المنقطع النظير واعتزازهم في الشئون كلها . لأن هذه الأوصاف لهي أوصاف كل أمة حية

، ووسائل النجاح لكل قوم في كل زمان ومكان ، وفي كل بقعة من بقاع الأرض – ومما يدهش الإنسان المفكر ويتركه حائرا في صحراء العجب والدهشة أن يرى أتباع هؤلاء القدامى الأعزاء وأبناء هؤلاء الآباء والأجداد ، والخلف للسلف المذكور أذلة في جميع البلاد ، مستعمرين في مشارق الأرض ومغاربها ، ومتفرقي الكلمة ، ومشتتي الشمل ، ومحاربي بعضهم بعضا ! ! .

دعائم العزة

إن من أهم دعائم العزة ، العلم والقوة والثراء، فأما الإسلام فكفيل بكل سياسة عادلة ويتقبل جميع مصالح البشر ولا يضيق بحاجة من حاجاتهم .

وأساس دعوته العلم والبحث والنظر في ملكوت السماوات والأرض . ومن أول ما دعا إليه : السعي والعمل والجهاد في الحياة ، والقوة والعزة ، ومن أول ما نهى عنه : القعود والتواكل والذلة .

وقد قرر القرآن الكريم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . فإن من الحقيقة البيضاء أن الإسلام دين الحياتين الأولى والآخرة ، وأنه كفل للإنسانية دعائم العزة كلها ، ولا يعترف بل ينكر بكل قوة وصراحة الجمود والخمول والفقر والرضا بالكفاف ، وكل من يتهم الإسلام بأنه عقبة في سبيل العلم أو الرقي أو القوة والعزة فهو لا يعرف حقيقة الإسلام ولا تاريخ المسلمين القدامى حقا . ومثل الحريات للعقول والأيدي كمثل من يقدح في عدالة القانون بسوء فهم القاضي له أو يحوره في تطبيقة ، وكالقدح في جودة البذر بأن الزراع يهمله أو لا يحسن زرعه ، فأما السبب الوحيد لكل هذه الاتهامات وهذا الفهم السيئ للإسلام ، فإن المتهمين والناقدين لم يعرفوا حقيقته ، وتأثروا بما عليه المسلمون ، فهم رأوا في أكثر المسلمين جمودا وجهلا وضعفا وفقرا ، فحسبوا أن منشأ هذا كله إسلامهم ، مع أن الإسلام بريئ من كل هذا وذاك – والحق المر أن منشأ هذا : إما جهلهم بالإسلام أو خروجهم عن حدوده ، لأننا نجد براهين ساطعة من نصوص الإسلام ومن مبادئه وأحكامه ، ومن تاريخه ووقائعه ، على أنه حفز إلى العلم والنظر والبحث ، وحث العقول على التفكير والتدبير والاختراع والاكتشاف ، ومن يمعن النظر في آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤمن حق الإيمان بأن الذين يتهمون بجمود المسلمين ليسوا على شيئ من الحق .

ففي القرآن آيات كثيرة إشارة إلى سنن كونية ونظريات طبيعية قررتها النظريات الحديثة في الخلق وبدء الحياة والفلك والأجرام . كل هذا دليل ساطع كالشمس على أن الإسلام لا ينافي العلم والمدنية ولا يناقضهما ، ومما يؤخذ أيضا على متهمي الإسلام وناقديه وعلى

بعض المنتمين إليه ، وقوفهم عند الألفاظ والحروف لبعض النصوص وإهمالهم روح النصوص ومعقولها والغاية المنشودة منها والأسباب الغائبة التي جاءت لأجلها تلك النصوص والأوامر ، وكذلك لا يخفى على من يتبصر في تعاليمه ويمعن النظر في أن كثيرا من المشتغلين بالطب الحديث قد قرروا ما جاء به الإسلام من تحريم بعض الأشياء كالميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها ، وقد اعترفوا بالنظريات الإسلامية الدقيقة في مثل هذه الأمور التي تتفق تماما مع النظريات الحديثة الدقيقة – لا يخفى عليه – أن الإسلام هو الإصلاح الأكبر والعون المبين لمصالح الإنسانية كلها في الحياتين الدنيا والآخرة .

الإسلام والحياة

الحياة الدنيا في نظر الإسلام

" كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح" فليس في استطاعة أي بليغ ماهر أو أي مصور مبدع ، أو أي كاتب ملهم مهما أوتي من قدرة الإجادة والدقة في التعبير أن يحيط بوصف الحياة الدنيا في غرورها الخلاب وسرابها البراق ونفاقها المكشوف بأدق من هذه الآيات القرآنية ، فإنها لا تكتفي بذكر الماء يخالط الأرض فيوقظ فيها النبت إلى النماء والخضرة والازدهار والترعرع والإثمار والقطاف والحصاد ، دون أن تجعل من ذلك رواية تمثيلية يقبل عليها المتفرجون بشغف وشوق ثم ينتهون إلى إسدال الستار على نهاية لازمة ومصير محتوم ...

وعلى الرغم من أن الله تعالى لم يتركنا لأحلام اليقظة تلعب بعقولنا وتبعث بأفئدتنا وتتصرف في خيالنا كما تشاء ، بل أقام لنا من عالم الإدراك ألف دليل على أنها وشيكة الزوال ، سريعة الانتهاء ، مطيلة بالغرور ، مملوءة المحن ، لا نزال كلها أمكنتنا الفرصة نحرص على الترامي على أعتابها ، والتعلق بأذيالها ، والتكالب عليها ، والتفافي في حطامها الفاني ، نرتكب في سبيل الوصول إلى أهدافنا الذاتية أشنع الأساليب ، حتى إذا أخلدنا إلى خلوتنا ، وانقطعنا إلى رؤيتنا لم يلبث ذلك الاتعاظ أن يتبخر في رؤوسنا ، وأن هذا المقدار من الإيمان يستوي فيه المؤمن والملحد ، والجاهل والعالم ، ولا يشك في حقيقته صغير أو كبير . . .

وهناك حقيقة لا ينكرها أحد هي أن الله تعالى اودع فينا من الطبائع والغرائز ما يحملنا على تنازع البقاء وحب التملك والسلطان والسيطرة والسيادة ، ولكن هذه كلها إنما تدفع الإنسان إلى نشدان "المثل العليا" بحيث لا يذل الفرد للفرد ، ولا يخضع الإنسان لأخيه خضوع الاستكانة ، وينقاد له انقياد العبودية ، ورسالة كل واحد منا في نظر الإسلام لا تتجاوز الإصلاح الذي تعود فائدته عليه وعلى الناس في حدود العمران والنهوض والتقدم والرقي ، مع كبح ما عساه أن يكون من طغيان الغرائز وطيش المطامع ، وثورة الشهوة ، ولكن مع التقوى والإحسان والإيثار والتآلف والمحبة ، لتطفئ فينا تلك الحدة التي تدفعنا إلى الافتتان بهذا الزخرف الكاذب ، والمتع الخادعة والظلال السريعة الانتقال ، فنكف عن

الشرور والآثام والتكالب والظمع في حطام الدنيا البراق ، وما تثيره الأفراد والجماعات في هذا السبيل من خصومات ظالمة وحروب غاشمة جعلت هذه الدنيا مسرحا من مسارح الجحيم ، تمثل عليه فصول العدوان ومنظر الدمار وأشباح الخراب والهلاك ، وصار هم القوى أن يتنافس في جعلها "جهنم حمراء" لا كثر ولا أقل .

وربما يقول القائل : إن هذه سنة الله تعالى في الأرض :

ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، وتصارع الدول ووقوفها على هذه المشاكلة لصد التيار وكبح الظلم ، ورد المطامع هو الذي يحفظ التوازن الدولي والسلم العالمي ، فتسلم هذه السنة الإلهية الجارية في الأرض ، بل تهدف هذه السنة إلى الإصلاح والعمران والحب في الخير والجنوح للسلم ، وأما الحالة القائمة الآن في العالم فأشبه بمهارشة الديكة وسعار الكلاب ، وأن الأمم الكبرى كلها مدفوعة إلى ذلك كله بباعث التوسع في السلطان والاستزادة من السيادة والسلطة والبحث عن أسواق عالمية لتصريف محصولاتها الصناعية أو الزراعية ، واستعمار الشعوب المستضعفة واستغلالها وامتصاص دمائها .

الإسلام والسلام العالمي

إن كلمة " السلام " أصبحت اليوم كلمة يتنازع عليها العالم كله وبعبارة أخرى ، أن الكتلتين المتنازعتين في العالم الحاضر يعتمد كل منهما في الدعاية ضد الأخرى على أساس انها هي وحدها – لا الأخرى – حامية السلام والعاملة لتوطيد أركانه .

أما الأخرى فهي الباغية المعتدية على السلام العالمي ، والناس في تفكيرهم الخاص ينقسمون إلى قسمين ، قسم يشايع إحدى الكتلتين في فهم معنى السلام على أنه دفع لخطر الحروب ، وآخر يشايع الكتلة الثانية في أن السلام هو الحرب من أجل إقرار السلام في العالم ونشر الأمن والطمأنينة في الجنس البشري – وإذا نظرنا بعين التحقيق والإنصاف نجد أن كلا من الكتلتين المتنازعتين الكبيرتين تريد بلفظ "السلام " حماية مصالحها الخاصة وأطماعها الذاتية ، وليس هناك شك في أن كلا منهما على صواب في فهم السلام على أنه الدفاع عن كيانها ومصالحها ومستقبلها بقطع النظر عن أية اعتبارات اخرى تخص الكتلة الأخرى.

هذا هو السلام في ذهن المجتمع الذي يعيش في القرن العشرين، هذا هو السلام الذي تهدف إليه كل كتلة من الكتل البشرية اليوم على أنقاض كتلة اخرى ، ومن هنا نستطيع أن نعلم أن هذا السلام لا يتحقق به السلم العالمي الحقيقي ، بل يؤدي بالمجتمع الإنساني إلى دمار وفناء ، ويملأ الأرض هلاكا وفتكا ، وينشر في البر والبحر فتنة وفسادا ، وإذا أرجعنا البصر كرتين إلى تاريخ الزمن الذي تسلم فيه مقاليد الحكم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون – وإلى أساس نظرته في معنى السلام الحقيقي لما غاب عن الأذهان ذلك الفهم الدقيق الواقع لمعنى السلام الحقيقي ، فلو تحقق السلام في العالم بالمعنى الذي يريده الإسلام بهذه الكلمة لساد بدون شك سلام واقعي كامل في البشرية كلها .

أما السلام في نظر الإسلام فعبارة عن نظرية إنسانية متكاملة وبعبارة أخرى ، احترام النوع الإنساني معاديا كان أو مناصرا ضعيفا أو قويا ، سقيما أو صحيحا ، وتحضرا كان أو بدويا ، أبيض كان أو أسود ، إن هذه النظرية الإنسانية المتكاملة تنظر إلى العلاقة بين

الإنسان والإنسان على أن بينهما صلة ونسبا ، مهما اختلفت الأجناس والألوان والأصقاع ، وأن هذا النسب هو :

"الإنسانية".. .

ولا تعتبر هذه النظرية العداء الذي يقوم بينهما عداء "غريزيا" أو "جنسيا" أو إقليميا" ، وإنما هو عداء طارئ بسبب اختلافات تقوم على وجهة نظر لا يمكن أن تكون إلا لصالح الناس كافة ، ومن طبيعة هذه النظرية فصل الحكم عن الفرد وربطه بالمجموع في القالب الاجتماعي الذي يرضى عنه المجموع فيكون "الأمر" في الفصل "شورى" . . بينهم . . أي "شورى بين الناس" ، فيحكم هنا المجموع في أمر من الأمور تبعا لما ترضى عنه النظرية الإنسانية المتكاملة ، لا تبعا لما تقتضيها الأهواء والمصالح الخاصة ، وأن الفرد ليس جزء مهملا في سبيل المجموع ، وأن المجموع ليس مهملا في سبيل الفرد ، وإنما هو فلك منسق دقيق يهب فيه الفرد كل إمكانياته للنوع البشري عامة . فالوطن في هذه النظرية هو المجتمع الصغير للنوع الإنساني والبشرية هي المجتمع الكبير ، ولا ترضى هذه النظرية بأن يكون في المجتمع جاهل إلا ويأخذ بيده الفرد والعالم ليوصله إلى ميدان العلم والتقدم ، أو فقير فيه إلا ويأخذ الفرد الغني بيده إلا شاطئ الأمان ، فيكون هنا هذا المجتمع الذي يمتلئ فيه كل فرد بالحيوية خليقا بالتقدم والحياة الخصبة ، ويصير منبتا حسنا لجيل شجاع مخلص ومجاهد صالح ، وحريا بالترعرع والإثمار . ومن طبيعة هذا المجتمع أن ينتفي منه الجمود والبطالة والخمول ، وأن تظل حركة التقدمية في المدنية والابتكار باقية كقانون فطري وناموس طبيعي .

الإسلام والأديان

إن العالم اليوم يجتاز فترة من أخطر الفترات في تاريخه ، وهو الآن على فوهة من البركان لا يدري أحد إلا الله متى ينفجر هذا البركان ويتدمر العالم الإنساني كله مع حضاراته المتنوعة ، واختراعاته الحديثة ، واكتشافاته الجديدة .

إن السبب الوحيد لهذه المشاكل هوم شهوة الاعتداء من القوى على الضعيف ومن الغني على الفقير ، ومن الذكي على الغبي ، فشرع الزعماء والقادة يفكرون في جميع أقطار العالم لوضع حد لهذا التوتر الحالي الدولي ، ولهذه العقلية الطائشة التي تؤدي بالنوع البشري إلى الهلاك والدمار والتضامن ، ولكن لا يخفى على من له إلمام بعقلية هؤلاء الزعماء وبأهدافهم وأغراضهم في هذه الحياة ، وبما وراء تلك المحاولات والدعوات من الأهداف ، أنهم ليسوا مخلصين في كل هذا وذاك ، ولم تسلم أفكارهم ولا عقولهم من العصبيات والأطماع .

فإذن لا خلاص لهذا العالم الزاخر بالتقلبات الماليئ بالأخطار إلا فكرة إنسانية عامة كاملة ، إنها الفكرة التي دعا إليها وبها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أكثر من أربعة عشر قرنا ، وهدفنه الأول تأسيس "جامعة إنسانية عالمية" .

إن صرح الإسلام لمبني على أساس التوحيد – لا على التوحيد بالله فحسب ، بل التوحيد في العقائد والعبادات ، وأصول جميع الأديان والأنبياء والشعوب حتى يؤدي إلى وحدة إنسانية تحت راية العدالة والمصالح العامة . والتعاون والتضامن الفطريين الإنسانيين ، لأن الإسلام دين فطرة شامل لأصول جميع الأديان السابقة عليه ، ومعترف بكل رسول أو نبي من آدم إلى محمد خاتم رسل الله عليه السلام ، وإن مثل الأنبياء الذين جاءوا في مختلف الأزمنة والأمكنة والبيئات كمثل الولاة في الدولة الواحدة ، وكذلك مثل الأديان المختلفة في بعض الأمور الفرعية كنسخ دين متأخر دينا متقدما عنه في الزمان ، كالتعديلات في

القوانين الدولية – وأن أمة الإسلام هي الجنس البشري كله ، ولا يوجه دعوته إلى جنس خاص ، ولا طائفة معينة ، ولا لبلد دون آخر .

"قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " .

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ".

"الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى "

ولا فرق تحت راية الإسلام – في إقامة العدل التام وإقرار الأمن والطمأنينة في نشر العلم والثقافات ، ومنع الظلم والاعتداءات على النفس والمال والعرض – بين شخص يعتنق تعاليمه الخاصة وبين من يعتنق دينا آخر ، وإن الهدف الأول من تعاليم الإسلام تحقيق الوحدة الإنسانية مع الأمن والطمأنينة والرفاهية في ربوع العالم كله ، ويجب أن ينظر إلى كل إنسان قبل كل الاعتبارات من حيث أنه إنسان فقط ، لأن الإنسانية فوق كل اعتبار في نظر الإسلام ، بل الإنسانية الحقيقية هي الإسلام الحقيقي ، فيهدف الإسلام بهذه الفكرة إلى تأليف "جامعة إنسانية عالمية" تضم الأصناف البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها ، لا تعرف الحدود الجغرافية ولا الاختلافات اللونية أو الجنسية أو اللغوية ، ولا تتسرب إليها العقلية الجامدة والفكرة الضيقة .

وعلى هذه الفكرة السامية قامت الدولة الإسلامية الأولى في عصور انبثاق فجر الإسلام - الإنسانية الكاملة – غاية ، وما عداها وسيلة وكانت الفوارق الجنسية والوطنية تتلاشى أمام هذه الغاية العليا ، وكان أن ساد الأمن والطمأنينة في العالم ، وشاعت الرفاهية والسعادة في النوع الإنساني كله ، وانتشرت الأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة في البلاد التي صارت تحت راية هذه الفكرة الإسلامية الراسخة في نفوس الملايين من البشر ...

ثم جاء من بعدهم خلف انحرفوا عن تعاليم الإسلام الحقة ، واتبعوا الشهوات والأهواء ، فتسربت العصبيات والفرقة إلى قلوبهم الجامدة وعقولهم الرجعية ، فضلوا وأضلوا كثيرا ثم ضاعوا وأضاعوا ، فصاروا وصمة عار في جبين الإسلام ، لأن الناس أخذوا يتعلمون تعاليمه "بجهلهم قواعد البحث والتحقيق وضوابط الحكم على الدين" من أعمال المنتمين إليه وأقوالهم ومعاملاتهم والإسلام منهم بريئ ، مع أن الدستور الوحيد للإسلام هو كتاب الله وسنة رسوله لا أقوال الرجال ولا أعمالهم ولا مؤلفات وضعت بأيدي زيد وبكر ولا آراء طائفة وحزب .

هذا وإن نصوص القرآن وسنة الرسول مليئة بمبادئ وقوانين وإرشادات وأحكام ومشروعات ونظم لتأسيس "جامعة إنسانية عالمية " تقوم على الفكرة الإنسانية العالمية المتكاملة لا يعرف أعضاؤه الأحقاد والضغائن ، ولا تتسرب إلى قلوبهم الأطماع وفكرة الطغيان ، ويعد كل منهم نفسه كغيره ، عضوا في الجسم الإنساني ، وركنا في أسرة الجنس البشري .

الإسلام والطبقية

" الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى" ، "وكلكم من آدم وآدم من تراب " .

بهذا المبدأ النبيل يسعى الإسلام لعلاج الأحقاد والأضغان ولتجنب الحروب والكروب في العالم الإنساني، ويعلن أن لا سلام في العالم ولا أمن في الدول إلا بتنفيذ هذا المبدأ القيم الفطري بين الجنس البشري .

وإذا ألقينا نظرة عامة على صفحات تواريخ الأمم الماضية ، وطوفنا تطوفا سريعا حول تواريخ البلاد التي فشت فيها الأحقاد والفتن ، واشتعلت فيها نار الحروب والمحن نجد أن الثغرة الوحيدة التي تسربت منها هذه المهلكات لمقومات الإنسانية هي الفوارق الطبقية والتفاوت الشائع بين طبقات الأمة .

مثلا كانت الأمة الرومانية منقسمة إلى طبقات ، عليا وسفلى ، وحاكمة ومحكومة ، وكانت الأمم الهندية بل ولا تزال . . "مع أن الحكومة الحالية منعت الفوارق الطبقية واللونية رسميا" منقسمة إلى طبقات متفاوتة في الدرجات مثل الطبقة البرهمية والطبقة المنبوذية ، فلا يجوز التزاوج بينهما ، ولا الاختلاط مع وجود قانون رادع عن هذه التفرقة .

ومما يثير عجبنا بل يدهشنا أن نرى هذه التفرقة غير المشروعة ، وهذه العقلية الرجعية منتشرة ومتغلغلة ف قلوب المتزعمين للديمقراطية والعدالة الدولية ، سيما في القرن المتحضر العلماني ، ، ونسمع بآذاننا ونقرأ بأعيننا صباحا ومساء الأنباء التي ترد من عواصم البلاد المتحضرة المتزعمة للحرية من اضطهاد الزنوج باسم اللون – السواد – وتحريم المباشرة والمكالمة والمخالطة بين إنسان أسود وبين أخيه الإنسان الأبيض ، مع أنه يتوافر في كليهما كل المقومات الإنسانية وميزاتها وفضائلها ! .

ومن ناحية أخرى تهتز المنابر الدولية وترتج المحافل العالمية بسبب سياسة اضطهاد الملونين في جنوبي أفريقا باسم اللون – أما الإسلام فقد هدم بادئ ذي بدء هذه العقلية غير

الإنسانية وهذه الفكرة الرذيلة الهدامة لمقاومة العالم الحر والأمن الدولي من أساسها . يمهد القرآن الكريم لهدم هذه الفكرة الجاهلية والتفرقة الاستعمارية بقوله :

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ".

ثم يقرر الإسلام بجميع قواه أن كل إنسان لا يتجاوز دائرة العبودية لله تعالى مهما بلغ إلى حد الكمال الإنساني . ومهما أتي من علم وقوة ومال ، فلا يتغلغل إلى دائرة الألوهية – والخالق هو الله الواحد القهار والمخلوقات بجميع أنواعها عبيد له ، وليس للحاكم سلطة مطلقة على المحكوم إلا تنفيذ أمر خالقهما ، وليس للمحكوم إلا تنفيذ أمره أيضا ، فالحاكم والمحكوم مطيعان منقادان لحاكم أعلى وأكبر منهما هو الذي يسيطر عليهما سواء بسواء . وعلى هذه العقلية الفطرية والنظرية الطبيعية ، أسس الإسلام قواعده وأقام دولته ونشر دعوته ، وجعل من الأمم المتخالفة والشعوب المتخاذلة في أتفه الأمور المنقسمة إلى طبقات وقبائل ، ومتفرقة إلى أحزاب وشيع ، وجعل منها أمة متحدة مثقفة مستنيرة متعاونة ، ولا تعرف المشاجرة والتطاحن والتحاسد والتباغض .

وقد آن الأوان لرجوع العالم الإسلامي أولا والعالم الإنساني كله ثانيا إلى هذا المبدأ النبيل والهدف المنشود ليتخلص العالم من الويلات والكروب والفتن والحروب ، فيسود الأمن والطمأنينة في بقاع الأرض وتعم السعادة والرفاهية في الجنس البشري .

التقريب بين الشعوب

لقد بدأ الأمم والشعوب اليوم تتقارب وتتعاون ، ويحاول بعض الساسة والقادة والزعماء في أنحاء العالم لإزالة الحواجز الوهمية : الجغرافية والسياسية التي أقامت الأطماع والأهواء ، بعد أن تكفلت الحضارة الحديثة والاكتشافات الجديدة بإزالة هذه الحواجز الطبيعية أيضا من بحار وأنهار وجبال وصحارى . أما الحواجز السياسية فحجوج وهمية ، وكذلك الفروق الاعتبارية من جنسية ولونية ولغوية وثقافية وغيرها ، فنحن – المسلمين – نتفق مع هؤلاء الزعماء كل الاتفاق ونتعاون معهم كل التعاون للوصول بالأمم إلى حياة ناعمة في ظلال الأمن والسلام ، بل ولا يسع كل محب للسلام والطمأنينة في العالم إلا أن يبارك هذه الجهود ويبذل من نفسه ونفيسه ما يفضي إلى هذه الغاية ، كما لا يسع كل منصف إلا أن يقدر لهؤلاء جهودهم فيها ، ولكن نرى يوما بعد يوم ، عراقيل في طريق هذا الهدف ، وموانع في سبيل هذه الغاية ، فالتقدم بطيئ جدا والطريق وعر والهدف بعيد ، بل يظن كثير من الناس أنهم لن يبلغوا الهدف المذكور وأن سعيهم في هذا السبيل سوف يبوء بالفشل . فإذا نظرنا بعين التحقيق والإنصاف ، وأزلنا الغشاوة عن الأبصار ، نجد أن العلة الوحيدة في جمود التقدم في هذا الميدان ، والفشل في هذا السعي ، ترجع إلى عاملين اثنين لا ثالث لهما، هما : انعدام الإخلاص وضعف النية في التطبيق العملي من القائمين على هذه الدعوة ، فالإخلاص والتطبيق من أبرز العناصر لنجاح الدعوات والبلوغ إلى الأهداف .

إن الشاهد التاريخي على ما نقول والدليل المادي لدعوانا هو الداعي الإسلامي الكبير والمصلح الإنساني الفذ ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان مثلا أعلى في صدق عزيمته والإخلاص في دعوته ، فأصاب هدفه وبلغ غايته خلال مدة قصيرة ، وربط بين القبائل والشعوب بروابط ، وخلق منها – وهي المتخاذلة المتحاربة – أمة متماسكة الأجزاء ، وثيقة البنيان ، موحدة المقاصد ، بعد أن كانت متفرقة إلى شيع وأحزاب . وغدا المسلم الهندي أخا للمسلم المصري ، والأوربي أخا للمسلم الحبشي ، والروسي أخا للأمريكي ، أخوة صادقة عميقة لا تشوبها مظاهر النفاق والرياء . ووضع النبي صلى الله عليه وسلم نظاما رائعا في جملته وتفصيله ، وسن للأفراد والجماعات حقوقا وواجبات على

أساس من العمل والمساواة والتعاطف والتعاون ، وعلى أساس من الرضى والقناعة واحترام حقوق الغير ، فألغى الفوارق بين الطبقات أمام القانون ، وحرم التنابز بالعصبيات ، والتباهي بالأنساب ، وأوصى بالمرأة والضعيف والفقير والمسكين واللهيف ، وحرم المحسوبية وحذر من سوء الظن والتجسس وتتبع العورات وإلحاق أي أذى بإنسان أو حيوان من غير حق يخوله الدستور الإلهي لإقرار الأمن والطمأنينة في المجتمع البشري .

ومن الأسس القرآنية والنبوية للتقريب بين الشعوب والأمم مهما اختلفت الحواجز الطبيعية والفوارق الوهمية بينهما

قول الله تعالى :

"إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم "

"وتعاونوا على ابر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان "

" يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإثم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون " .

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

ويقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم :

" والناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى" .

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

" المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم وأدناهم وهم يد على من سواهم " .

"كل المؤمن على المؤمن حرام دمه وماله وعرضه " .

وكانت أفعاله عليه السلام تطبيقا عمليا لأقواله وتعاليمه ، فإذا دعا إلى الشورى ضرب المثل بنفسه ، فقد كان يستشير أصحابه في شؤون الدولة والأمة – ونزل مرات على رأيهم حيث بدا له وجه الخير فيها ، وإذا دعا إلى المساواة كان كذلك ، روى عنه أنه أقبل على جماعة يوما فقاموا له إجلالا فقال :

" لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس" .

وإذا دعا إلى التعاون فهو في تعاونه المثل الأعلى ، كان يوما في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل : "على ذبحها " ، وقال ثان : "على سلخها" ، وقال ثالث : "على طبخها" ، فقال الرسول عليه السلام : "وعلى جمع الحطب" ، فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال : علمت أنكم تكفونني إياه ولكنني أكره أن أتميز عليكم " .

وإذا دعا إلى العدل صدق فعله وقوله ، فهو القائل :

" والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . .. "

وقد نهج خلفاؤه الراشدون وأمراؤهم وحكامهم هذا النهج النبوي القويم ، فخطب أبو بكر الخليفة الأول رضي الله عنه إثر مبايعته بالخلافة :

"أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يتفقد أحوال رعيته ليلا ليطمئن على أداء واجبه نحوها . وجهز عثمان ثلث الجيش من ماله في غزوة العسرة حين دعت مصلحة الأمة إلى البذل والتضحية – وكذلك علي كرم الله وجهه كان إماما يسهر على صالح الرعية ورفاهيتها ، ومخلصا وصادقا في أفعاله وسياسته .

وبهذا الأسلوب من الإخلاص وصدق النية في الدعوة والقول والتطبيق العملي لمبادئ الدعوة ، نجح محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه في التقريب بين الشعوب والتضامن بين الأفراد وكان نجاحه مثلا تاريخيا فذا ، وكان موضع الدهشة عند المؤرخين العرب والأوربيين على السواء ، وما نجحت دعوتهم إلا لأنها قامت على أساس من الإخلاص والتطبيق العملي لمبادئها .

مع قضية الربا

مهما عدد الاقتصاديون والرأسماليون ، وأصحاب البنوك للربا من مزايا وفوائد ، ومهما نسبوا إليه من منافع ومصالح ، فهل يستطيع أحد منهم أن ينكر أن الربا من شأنه أن يجعل العلاقات بين الأفراد والجماعات علاقة مادية محضة ودنيوية فقط ؟ لا ظل فيها للتعاون ولا قيمة فيه للإخلاص القلبي ، ولا اعتبار فيها للتعاون والتعامل الودي والروحي ، والارتباط المعنوي ، إلا على ربط مادي بحت – أما الإسلام فقد نظم العلاقة بين الناس على أسس من التعاون على البر والتقوى . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الربا يغري أرباب الأموال ألا يستغلوا أموالهم إلا بمثل هذا الأسلوب ، لأنه في زعمهم ، ضمن فائدة ، وأبعد من مظان الخسارة ، وحينئذ تموت المشاريع العمرانية والصناعية التي يعود خيرها على جميع الطبقات ، فإن النقود في نظر الاسلام ليست سلعة مقصودة بالذات في التجارة وانما هي وسيلة للبيع والشراء – فأما الربا فيجعله مقصودا لذاته فيحتكره أرباب الأموال فتتعطل مصالح العباد ، وتتفشى الأحقاد والضغائن ، وتكثر الفتن والكروب .

وقد راعى الإسلام في تشريعه لقوانين المعاملات بث روح التعاون بين الأفراد والجماعات ، وتنمية عاطفة الخير في القلوب فأباح من أنواع المعاملات كل ما يحقق هذا المبدأ النبيل ، وحرم كل ما يتسبب في قطع أواصر الألفة ، وبذر بذور العداوة والبغضاء - وكذلك يبيح الإسلام كل ما يرجح فيه جانب الخير على جانب الشر ، ويحرم كل ما هو عكسه – وليس أمامه قيمة لخير مرجوع إن كان يقابله خير مؤكد ، وأيضا لم يترك الإسلام الناس إلى عقولهم وأهوائهم ، بل أرسل الله تعالى إليهم مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ، وشرع لهم الشرائع – فإن الله تعالى هو أعلم بمصالح عباده من أنفسهم ، وليس حكمه عن هوى أو غرض – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

إن الإنسان في كل عصور ، عرضة للخطأ المقصود ، أو غير المقصود ، وإنه ينظر إلى الأمور في أغلب الأوقات والأحوال من ناحية هواه ، وكثيرا ما يتغلب الهوى على العقل فيفسد تفكيره ويريه الحسن قبيحا والقبيح حسنا ، قديما قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تبدي المساويا

فقد سمعنا وقرأنا كثيرا أن الزاني يجد له مندوحة في زعمه ، ومحب الخمر أيضا كذلك في وهمه – لهذا كان التشريع الإسلامي هو المقياس الوحيد والميزان الحق ، لأن التشريع الإنساني مجال للغلط واتباع الأهواء والشهوات وسوء التفكير وغيره ، ومن هنا حرم الإسلام الربا وشدد في أمره وبالغ في النكير على المتعاملين به .

ثم توعد المرابين بحرب من الله ورسوله إن لم يتوبوا ويردوا الأموال إلى أهلها – أليس هذه الاضطرابات والحروب والكروب في أنحاء العالم كله ، وسلب الأمن والطمأنينة نذرا من الله تعالى لعباده بتلك الحروب التي آذنهم بها لانتهاكهم حرماتهم ، وخروجهم على تعاليمه ؟ .

"الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، ومن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" .

"يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم "

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون " .

مع قضية المرأة

لا يكتمل نظام ولا دستور سماويا كان أو وضعيا بشريا ، ولا يكون عاما ولا خالدا إذا أهمل مشكلة المرأة التي تشكل نصف الأمة من غير حل مرضى يتفق وفطرة الناس وطبيعة العالم ، وإذا لم يضع منهاجا خالصا لها يختلف عن مناهج الرجال في بعض الأمور وفقا للفوارق الطبقية بين جنس الرجال والنساء المتفاوتين في كثير من القدرات والخبرة والمقومات .

وإذا نظرنا إلى الدستور الإسلامي العالمي الخالد الصالح لكل زمان ومكان في ضوء التقرير المذكور، نجد فيه أنه يحل هذه المشكلة حلا وسطا عادلا طبيعيا ، فإن الإسلام يأخذ بيد المرأة فيهذبها ويعلمها ، ثم يجعلها في مستوى الرجل في كثير من الحقوق والواجبات ، ويفرض عليها واجبات وطنية وحقوقا اجتماعيا كما يفرض على الرجال سواء بسواء .

ومع ذلك فإنه يقرر الفوارق الطبيعية بين الرجل والمرأة في بعض المقومات والقدرات ، لأنه لا يرضى بالفوضى والفتن وبالتعادي على الحدود المحددة لكلا الجنسين ، لأن كلا في دائرة تخصصه .

لهذا قرر الإسلام أن البيت هو الوطن الصغير ، والبلاد هي الوطن الكبير ، أما الوطن الصغير فيربي فيه الجيل الجديد وشباب المستقبل ، فيحتم على المرأة الاهتمام بتربية الجيل الناشئ وبشؤون المنزل الداخلية أكثر من الأمور العامة ، وحتم على الرجل الاهتمام بشئون خارج المنزل وشئون الدولة والأمور السياسية ، إلى جانب مسؤوليته المسؤولية الكاملة عن البيت أدبيا وماديا . . . لأنه يفوق المرأة طبيعيا في بعض القدرات الخارجية وفي الفرص السانحة له لإدراك مجريات الأمور والتطورات في أنحاء البلاد ، ولا يعوقه ما يعوق النساء من بعض الموانع الطبيعية .

ولهذا يقرر دستور الإسلام هذه الفوارق الطبيعية بينما قرر بكل قوة وصراحة المساواة في جميع الحقوق البشرية والإنسانية بين الرجل والمرأة .

"ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف " . .

" وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شئ عليما ، وللرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا" .

ثم يقول معلنا تفاوت القدرات والخبرة والقوى الطبيعية بين الجنسين في قوله :

"وللرجال عليهن درجة " . . هذا ليس في الإنسانية ولا في الحقوق البشرية ، كما يتوهم البعض أو يزعم . ولهذا قرر الإسلام أن المسؤولية الأولى في شؤون الأمة والدولة ، والشؤون المنزلية والعائلية على عاتق الرجل لا على المرأة ، فهو الرقيب على شؤون البيت وهو المسئول الأول أمام العدالة والقضاء والمحاكم في شئون الأولاد والعائلة والمنزل ، لأنه لا بد لكل دستور من تحديد المسئولية في مثل هذه الأمور .

حدد الإسلام هذه المسئولية وألقاها على عاتق الرجل فقال :

" الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا ، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا " . .

فما أبلغ هذه الآية الكريمة في تقرير المساواة بين الرجل والمرآة في جميع الحقوق الإنسانية ، وفي الأخذ بيدها إلى مرتبة الرجل في هذا المضمار حتى اعتبرتها مواطنة كاملة – إذا خيف بينهما الشقاق والفرقة فلا للرجا إكراهها على ما لا ترضاه ، بل تنتقل المسؤولية إلى قاعدة التحكيم بينهما ، كما صرح به في آخر الآية بقوله :

" فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من أهلها " . ..

ثم يتوجه الإسلام إلى إقرار الأمن والطمأنينة في البلاد وقمع الفتن والشهوات البهيمية ، ومنع الفوضى وانحلال الأخلاق – لأن الإسلام مجموع قوانين فطرية – فطرة الله التي فطر الناس عليها - فلا يوجد نزاع ما بين طبيعة العالم والإنسان ، وبين قوانين الإسلام ومبادئه ، وأن مهمته الرئيسية حث الناس على احترام الفطرة الإنسانية والطبيعة العالمية . وإبعادهم عن مخالفتها وإنكار مخالفيها ثم تنبيه العقول الضعيفة إلى مبادئ النواميس الطبيعية ودواعيها فينظم الأمور ويرتبها حفظا على النظام وتجنبا للفوضى ، ومن الطبيعي الإنساني القوة الجاذبية بين جنس البشر – الرجل والمرأة – فينشأ عن الاختلاط غير المشروع وبلا نظام بين الرجال والنساء فساد الأخلاق وسوء النظام سيما في العناصر الفاسدة ذات الاعوجاج الخلقي والانحطاط الثقافي لسوء التربية أو قلتها أو عدمها .

لهذا حرم الإسلام على الرجال الاختلاط مع الأجنبيات إلا عند الضرورة ، كما حرم على النساء التبرج والسفور والاختلاط المشبوه مع الأجانب ، ليفرغ كل لعمله المخصص له ، ويستقر في مكانه المعين له ، ولأداء مهمته الخاصة المحددة – وبهذا يتم الأمن وتجري الوظائف والمهمات في الداخل والخارج في استقرار وهدوء ، ويحول دون التهترات والفوضى . وبين دستور الإسلام آدابا هي جزء من الفطرة التي فطر الناس عليها ، لصيانة الأعراض فيشير القرآن إلى ذلك :

" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورا ت النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " ..سورة النور ..

والمرأة في نظر الإسلام ليست أقل في وطنيتها وجهادها في سبيل الأمة والوطن والإسلام من الرجل ، كل فيما يخصه من إعداد الجيل الجديد وشباب المستقبل من دائرة البيت ومن السهر على التدابير المنزلية والعائلية بما يتفق ومصلحة الوطن والأمة حينما يعمل الرجل في ميدان الجهاد وساحة المعارك في خارج البيت أو خارج الوطن ، وكذلك يجب على المرأة أن تتمرن على إسعاف الجرحى من المحاربين والمرضى من أبناء الوطن وبناته بطريقة جائزة بمقتضى دستور الإسلام ، لذا نرى السيدات المجاهدات يشتركن على قدم المساواة في خدمة الوطن والملة ، وفي ميدان الجهاد والكفاح مع الرجال ، ولكن كل في دائرة تخصصه، تجنبا للفوضى ، وتسهيلا للأمور وتذليلا للعقبات ، ورأفة المجاهدين والمجاهدات – فإن للسيدات الباسلات المكافحات لأسوة حسنة في العديد من صواحب رسول الله ، وهن كثيرات ، ولا سيما الخنساء التي أعدت أبناءها الأربعة للنزول إلى ميدان القتال مع كامل العدة والقوة – فكانت تنتظر نتيجة رحى الحرب ، فلما وصل إليها خبر مقتل هؤلاء الأبناء الأربعة في ساحة القتال حمدت الله تعالى على هذا الشرف العظيم .

الإسلام والأخلاق

هذه الأخلاق المنحلة

إن الفساد الاجتماعي والانحلال الخلقي يسري في هذا الزمان إلى كل ناحية من نواحي الحياة البشرية وفي كل بلد من البلدان وفي كل طبقة من الشعوب والأمم ، هذا ما تقرأه صباحا مساء من الأنباء ، ونلمسه كل وقت من آثاره ، كأن الناس قد أصبحوا اليوم ولا هم لهم إلا تحقيق أغراضهم والوصول إلى غاياتهم سواء أكانت خيرا أم شرا ، باطلا أم حقا ، ولم يعد هناك عاصم يعصمهم من السير في هذه الطرق الوعرة ما داموا قادرين على التماس الوسائل واتخاذ الحيل ومخادعة القوانين والنظم بتأويلها أو الازورار عنها ، وقد ساءت الحال في العالم الإنساني اليوم بقدر أن امتلأت – أو تكاد – قلوب المصلحين وأذهان الخادمين المخلصين لمصلحة الإنسانية عامة يأسا وقنوطا من صلاح الأحوال واستئصال أسباب الفساد والانحلال .

وقد آن الأوان لأن يفهم القادة العالميون والزعماء المصلحون ، أنه لا صلاح لهذا النوع الإنساني ولا حل لهذه المشكلة الاجتماعية والجرائم الخلقية إلا بتقوية الطاقة الروحية والوازع الديني في البشر ، وهذا هو الذي يزكي النفوس ويطهر القلوب ويقيم حارسا على كل إنسان من نفسه . لأن القوانين تخادع وتغالب ويمكن الإفلات من سلطانها إذا لم تكن الروح الدينية مسيطرة على الإنسان ، وخشية الرب الذي خلقه ورزقه تملأ قلبه ، والثقة بعدله والإيثار برضاه والاستحياء من أن يراه عاصيا له خارجا على أمره فإن الحل الوحيد لهذه المعضلات النفسية والخلقية والاجتماعية هو تقوية الوازع الديني في القلوب والإيمان بالله والآخرة فتصادر نوازع الفساد والشرور وتغرس بذور الخير والصلاح .

ومما هو جدير بالإشارة إليه ههنا – أن المعارف المشوهة والصور الظاهرية التي يعرفها كثير من الناس عن الأديان قد سعت لإبعاد الناس عن الروح الديني سيما في العناصر الفاسدة والقلوب الضعيفة والعقول الجامدة ، كما قيل إن المعرفة الناقصة المشوهة شر من الجهل ، لهذا يدعو الإسلام النوع الإنساني كله إلى معرفة مبادئه وأحكامه من كتابه المقدس السماوي ، ومن بيان رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم معرفة صحيحة ويرغبهم إلى إدراك ما فيه من خير وجمال باستعمال العقول والأفكار الموهوبة لكل إنسان لأنهم إذا

عرفوه أحبوه ، وإذا أحبوه أجلوه وعظموه فيحرصون على أن يصدروا في أفعالهم وأحوالهم عن تعاليمه القديمة ومبادئه الصالحة – ثم يخوف الناس ويبعدهم عن الهروب وراء الأوهام والأضاليل والآراء الضارة والتقاليد العمياء :

" ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل " .

ومما لا ريب فيه اليوم ، أن رجاء كل مفكر مصلح ، وخادم مخلص لصالح العالم الإنساني ، من كل زعيم معنى بشؤون الأمة ومصلحتها ، ومن كل قائد يتولى أمور الأمم والشعوب الإسلامية أن يوجه عنايته السامية نحو نشر مبادئ الإسلام الحقة وأحكامه الصحيحة في المجتمع البشري ليقف على محاسنها المسلمون وغيرهم من مختلف الأمم والشعوب في أقطار العالم سيما في هذا العالم الذي يعيش في مشاكل ومعضلات وعوامل وتيارات شتى بحيث لا يعرف أحد نتائجها الوخيمة إلا الله المهيمن على مقاليد الأمور .

نحو نفس طاهرة

إن النفس الإنسانية لمطبوعة على أصناف من اللؤم والقبح ، ومستعدة دائمة لتقبل ما يوحى به هواها وشهواتها . لهذا نجد إذا تصفحنا صفات التشريعات السماوية أو الأرضية الصالحة أن أول أهدافها تطهير النفس من أهوائها ، وتنظيفها من نزعات الشر والملكة فيها ، لأن المجتمع لا يتكون إلا بأفراد قلة فلا يصبح ذلك المجتمع صالحا إلا إذا كان أفراده صالحين ، والفرد لا يكون صالحا حتى يكون أعظم أهدافه وأسمى أغراضه العدل والإنصاف وحب الخير للآخرين والرغبة في إنهاض الأمة والمساعدة على الحياة الكريمة لبلاده ولقومه وللنوع الإنساني كله .

فالإنسان في حاجة ماسة إلى إرادة قوية تعصمه من الزلل وتحول بينه وبين الخضوع لما تمليه عليه نفسه الأمارة بالسوء . ولما قيل لعمر بن عبد العزيز أي الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك ، فإن الشجاع الباسل قد يتغلب على أقرانه ولكنه لا يستطيع أن يرد هوى من أهواء نفسه . وفي ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

" ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " ..

فلا نجاة لهذا العالم الزاخر بالتقلبات المليئ بالفتنة والفساد والحروب والكروب إلا بنفوس طاهرة من الأهواء النفسية وخالية من الأغراض الذاتية ، وعاملة لصالح البشرية كلها ، وتؤثر المصالح العامة على المصالح الذاتية والأطماع الشخصية الهدامة . ثم تتولى مقاليد حكم العالم هذه النفوس المخلصة الطاهرة ، فتصل سفينة العالم الإنساني الحائر بين العواصف والتيارات إلى شاطئ الأمن والسلام .

نحو سلوك قويم

إن كلمة "العمل الصالح" كلمة جامعة شاملة لمعان كثيرة ، ومزايا عديدة ، وحقائق جمة لقد صرح القرآن الكريم والأحاديث النبوية في عدة مواضع ، بأن الإيمان وحده لا يكفي لنيل الفوز والنجاح في الدارين، والفوز بمرضاة الله تعالى ، ولإقرار الأمن والطمأنينة في العالم ، ولكن لا بد مع الإيمان العمل الصالح - العمل الصالح لله عز جل ، ولنفسك ولوالديك ولأقاربك ولقومك ولوطنك وللعالم الإنساني كله – لأن الإيمان لمنشأ والعمل الصالح لمظهر ، ولا يوجد المظهر بدون المنشأ ، وكذلك يلزم مظهر لكل منشأ .

ومن هنا كانت الأعمال الصالحة في كل معانيها ومظاهرها لازمة للفوز في الحياتين ، وواجبة لإقامة العدالة الإنسانية في الجنس البشري ، ولهذا لا نجد آية من القرآن تتحدث عن الإيمان والعقائد إلا وهي مقترنة بالعمل الصالح .

" والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " .

" والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، فما يكذبك بعد بالدين ، أليس الله أحسن الخالقين " . .

ومن السذاجة البديهية الاكتفاء بالإيمان والعقيدة فقط للوصول إلى الأهداف التي تتطلبها هذه العقيدة ، وهذا الإيمان بدون العمل الصالح بموجب تلك العقيدة والإيمان – فتبين لنا مما سلف أن العمل الصالح هو السبب الوحيد لإنجاح مطالب الإنسان ، وللوصول إلى أهدافه النبيلة .

إن الإسلام دين العمل والعقيدة ، فيوجب على كل إنسان أن يعمل لصالح غيره ، كما يعمل لصالح نفسه – وتظهر الحقيقة السامية وهذا المبدأ النبيل في جميع تعاليم الإسلام ، يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم .

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

" الله في عون العبد ما كان العبد في عون اخيه ، فهل يصبح مؤمن مؤمنا كاملا في نظر الإسلام إلا إذا كان عاملا لصالح أخيه الإنسان كما يعمل لنفسه ، ؟ فيا حبذا لو تغلغلت هذه العقيدة في قلب كل إنسان ، فلا تباغض ولا تحاسد ولا تقاتل ، فنرى حينذاك عالما إنسانيا متكاملا متحابا متساندا – فما أسعد هذا العالم الأخوي المخلص ! !. وما أشقى ذلك العالم الإنساني المتباغض المتحاسد المتحارب .

وبهذا التعليم المتسامي يضع الإسلام حلا فاصلا للكثير من مشاكل العالم التي تنبعث من المطامع الشخصية والتكالب البهيمي في سبيل حطام الدنيا ، فهو يدعو العالم إلى المبدأ النبيل لحل معضلات الجنس البشري كلها ..المبدأ الذي يتطلب من كل فرد أن يعمل لصالح كل إنسان كما يعمل لنفسه ، بل وينصح بالإيثار ولو كان به خصاصة ، ثم يعلن أنه لا حل لهذه المشاكل المنتشرة في العالم الحائر ، إلا بتقوية الإيمان الصحيح في القلوب والعمل الصالح لنفسه ولوطنه ولقومه .. في حدود مبادئه ومعانيه – فيصبح العالم الإنساني كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تشاركه سائر الأعضاء في آلامه وآماله ..

الإسلام وشباب اليوم

إن شباب اليوم رجال الغد وقادة الأمة وزعماء البلاد ، ومن سيصبح في أيديهم مقاليد الحكم ومفاتيح الأمن والسلم العالميين ، لذلك كانت مسؤولية الشباب ذات أعباء جسام .

إن من أهم العوامل في تكوين شخصية الشباب في نظر الإسلام هو تقوية الطاقة الروحية فيه ، والتدين أساسه الإيمان بخالق الكون ، وبقضائه وقدره ، والإيمان بالآخرة والحياة الأخرى ، فإن هذه التربية تربى فيه الاعتماد في الشدائد على الله سبحانه وتعالى مع الجد ، والمثابرة وطرح الدعة والتواكل تجعل منه رجلا مطمئن القلب ، ساكن النفس يقبل على عمله في ثقة ويعتمد في نجاحه بعد إعداد الوسائل والعمل لها ، على معونة الله عز وجل وتوفيقه .

والقوة الروحية والتدين والإيمان بالله تغرس في الشباب كثيرا من الفضائل الشخصية والاجتماعية التي تجعل منه مواطنا عاملا في بناء أمته والنهوض بها ودفعها إلى مراتب العزة والسؤدد لتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم ، وتغرس في نفسه الشجاعة والإخلاص والإيمان بالفكرة الصحيحة ، والدفاع عنها بكل عزيز لكي يغرس في نفسه احترام حقوق الغير والمحافظة على أموالهم وأعراضهم ، وكذلك لا بد من الإعداد العلمي والدراسات الشخصية والاختبارات العلمية للأحداث والشخصيات ليستطيع بذلك كله أن يواجه الحياة وهو مسلح بصير بأحوالها خبير بشؤونها .

وإذا نظرنا إلى تاريخ عصور الإسلام الأولى نجد فيها أن الشباب المسلم فتيانه وفتياته لعبوا دورا هاما في نشر الدعوة الإسلامية ورفع ألويتها ونهوض الأمة المحمدية . ونجد أمثلة رائعة لجهاد الشباب وإيمانه بفكرته واستعذابه الألم في سبيل رفعتها ونجاحها . كل هذا

وذاك بفضل التعاليم القرآنية والتربية النبوية في إعداد الشباب إعدادا صالحا كاملا ماديا وروحيا ، ولما عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة وعلمت قريش بعزمه اتفقت على قتله ليلة الهجرة ، فأمر عليا رضي الله عنه أن ينام في فراشه بدلا منه ليخدع قريشا ، فقبل علي الشاب وهو يعلم أن القتل سيكون قاب قوسين منه أو أدنى ، ولكنه قبل ذلك بنفس راضية مطمئنة مضحيا بها في سبيل الله ورسوله ، فنجا النبي صلى الله عليه وسلم ، وانتشرت الدعوة الإسلامية ، وكذلك أسلمت فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام أخيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي دون العشرين ، وكانت تكتم إسلامها منه لشدته ، فلما علم بذلك دخل عليها وقال : "بلغني أنك صبأت ، ثم ضربها ووثب على زوجها فضرب به الأرض ، وجلس على صدره ، فجاءت تمنعه منه فشج وجهها وسال دمها ، فلما رأت الدم بكت وقالت له : "أتضربني يا عدو الله لأني أوحد الله ، لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب ، فما كنت فاعلا فافع" وفكر عمر فيما فعل وندم عليه ، وما زال به تفكيره حتى قاده إلى حظيرة الإسلام ، وكان إسلامه عزة للإسلام وخطوة مشرقة في تاريخه .

خاتمة

فطرية الإسلام

الإسلام هو دين الفطرة ، كما أنه دين العقل والعلم ، وأن ميزة الدعوة الإسلامية أنها تخاطب العقل ، وكل ما يدعو إليه الإسلام من العقائد والأعمال والأحكام ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ولا تأباه النفوس السليمة ، ومن ناحية أخرى ، أن القرآن قد حدد وسائل الدعوة إليه بالبرهان العقلي والإقناع السليم ، ومنع أي نوع من الإكراه إذ صرح : "لا إكراه في الدين " وأن الرسول غير مكلف بشيئ سوى التبليغ المبين .

وجاء الإسلام مصداقا لما اقتضته الفطرة السليمة ، ولم يزد في الاستدلال شيئا سوى أنه أيقظ العقول ونبهها إلى النظر في آثار الله تعالى ، فجاء في وصف الخلق تعالى وإثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل. ومن الآيات الواردة في ذلك : "أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هو قوم يعدلون ([1]) " . " أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ([2]) .

" قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا " ([3]). "وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون "([4]) .

إن دعوة القرآن وجهت أولا وقبل كل شيئ إلى الفطرة السليمة للإنسان ، فهو لم يدع إلى شيئ ليس في استطاعة العقل البشري أن يدركه . وبعبارة أدق وأصح أن الإسلام هو الدين الذي حطم فكرة الإيمان بغير المعقولات وأقام على أنقاضها الإيمان اليقيني المتحصل من

([1]) سورة النمل ٦٠ .
([2]) سورة النمل ٦١ .
([3]) سورة فاطر ٤٠ .
([4]) سورة الرعد ٣ .

طريق العقل والنظر ، والقائم عند حدود المسلمات العقلية ، وحكم الفطرة البشرية ، وأن الآيات القرآنية التالية لتساعد على إدراك هذه الميزة الكبرى للإسلام :

"قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون " . . "وقد بينا الآيات لقوم يعقلون ". " وإنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا " . و"لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .." .

وكان جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في كل زمان ومكان ، يدعون الناس إلى النظر في الظواهر الطبيعية المألوفة للاستدلال بها على صدق دعوتهم التي بعثهم الله بها ، ويخاطبون العقل والضمير، وإذا أردنا فهم ميزة الدعوة المحمدية وجب أن نفهم المعنى الحقيقي لكلمة "الإسلام" فهما صحيحا، وهي لا تحمل اسم نبي أو داعية ولا يطلق عليها اسم خاص هو "الديانة المحمدية" أو "الدين المحمدي" . .

وتفيد كلمة "الإسلام" معنى " الانقياد التام لله تعالى وحده ، والإذعان له دون سواه " ، ويصرح القرآن الكريم بمعنى الإسلام الحق مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم : "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ولذلك امرت وأنا أول المسلمين " ([1]) .

ومن أكبر خصائص الإسلام أنه يشتمل على أبرز المزايا الموجودة في سائر الأديان العامة المتفقة مع أحكام العقل والأخلاق السليمة . وأن صلاحية النظام الإسلامي لكل العصور والأمم واتفاقها التام مع أحكام العقل والفهم السليم ، وخلوها من الأسرار التي تلقى ظلا من الجهل العاطفي حول السنن الكونية الفطرية ، كل ذلك يدل على أن الإسلام يحتل أسمى درجة من التطور الديني في الجنس البشري .

وجدير بالذكر وخليق بالاعتبار – لكل باحث منصف ودارس مدرك لحقائق الأمور – أن أسباب الجمود الذي أصاب جمهرة المسلمين في كثير من بقاع الأرض في الآونة الأخيرة لا ترجع أبدا إلى تعاليم الإسلام ذاتها ، بل مرده إلى عدم فهم روح الإسلام والبعد

([1]) الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣.

عن تعاليمه الحقة . ويمكن أن نلخص الأسباب الرئيسية لهذه الحالة المتسمة بالتخلف والجمود التي وصل إليها أتباع الدين الذي هو أكثر استجابة لدواعي التطور والتقدم ، وأكثر وفاء لما تستلزمه البشرية من مطالب الرقي في شتى مرافق الحياة، في الأسباب الآتية :

* الانصراف عن الإسلام كإيمان صحيح ونظام عملي قائم على العلم والفهم إلى مصطلحات تقليدية وعبادات صورية لا روح فيها ولا مغزى .

* التهافت على الخلافات المذهبية وصرف أوقات العلماء في درس وبحث وجدل ، حول الفلسفات النظرية العقيمة والعلوم الخيالية البالية ، وتضييع جهودهم في سفاسف الأمور وفروعيات المسائل .

* إهمال العلوم العملية والغفلة عن مطالب العصر المتطورة حسب مقتضيات فطرة الكون ونواميس الطبيعة .

* الانخداع بمكائد أعداء الحق والوقوع في شباك خصوم الإسلام ، وعدم التنبه إلى دسائسهم وألاعيبهم.

* اتخاذ الإسلام وسيلة لنيل بعض الأغراض الذاتية واستخدامه لتحقيق بعض المطالب الدنيوية ، الجاه والسلطة والنفوذ وما إلى ذلك .

ولا ريب في أن هذه الحالة ليس لتعاليم الإسلام أي دخل فيها ، بل إنها نتيجة حتمية للابتعاد عنها ، هذا وقد أمر القرآن الإنسانية كلها بأخذ أسباب التقدم والرخاء وحذرها مغبة الجهل والغفلة ، واعتبر الغافلين كأنعام بل هم أضل .

وخلاصة القول : إن وظيفة القرآن في البشر رسم أقرب الطرق إلى الهداية وحفظ البشرية من مواطن الهلاك ، فما كان ليأتي بما ينافي العقول السليمة أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به ، أو يفرض على الإنسان ما ليس من فطرته وطبيعته . ومن هنا أصبح الدين الإسلامي دين الفطرية البشرية التي فطر الناس عليها في كل زمان ومكان ، صالحا لكل أمة وكل جيل مصلحا لكل من استمسك بمبادئه وعمل بنظامه ، وأعلن القرآن أن دين الله في

كل الأمم واحد ، لا تختلف أصوله باختلاف الأمم وأصولها وأوزانها وأمكنتها ، وإنما الذي يختلف هذا وذاك هو الأحكام الفرعية . ويشير إلى ذلك قوله تعالى :

" قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله " . .

وقوله أيضا : "إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . . " .

ومن فطرية الإسلام أيضا أن صرف قلوب الناس عن التعليق لما كان عليه آباؤهم ، ونهاهم عن التقليد الأعمى ، فكلف الاستقلال لكل شخص في عقله وفكره وعمله . وأعلن أن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام والتبعية ، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والفكر ، وعاب على أرباب بعض الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم ، ونبه على أن لكل نفس ما كسبت وعليها مااكتسبت ، وقد ذم القرآن هذه الظنون والأوهام إذ حكى قولهم :

" إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون" .

ثم أعلن : "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، " . وكذلك قوله : "ولا تزر وازرة وزر أخرى " ..

وهكذا صاح الإسلام بالعقل البشري السليم صيحة أيقظته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الأمد فيها ، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق استجاب له .

إن دعوة الإسلام تقوم على قاعدتين هامتين :

أولاهما : تحرير العقول البشرية من الأعباء المصطنعة التي فرضتها القوانين البشرية أو العادات والتقاليد المتوارثة .

الثانية : ضمان المساواة التامة بين أفراد الجنس البشري في الحقوق والواجبات الإنسانية ، وأن هذه الدعوة تتسم بالبساطة لا تكلف المرء أن يطيع أمرا يعتذر عليه إدراكه أو تنفيذه ، وكذلك لا تعترف بامتيازات خاصة ولا بنظام الطبقات بين الأفراد والجماعات .

ويؤكد القرآن اللكريم فطرية الإسلام الشاملة العامة بقوله : "فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " .. ثم وصف النتيجة الحتمية لهذا الدين مخاطبا خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " ..

رجاء . . وأمل

أما الرجاء فهو في أن تجد سلسلة الثقافة الإسلامية مكانها لا يزال باقيا بين قراء الثقافة الإسلامية ، بعد غيبة سبعة أعوام حسوم . .

وأما الأمل فهو في أن يدرك من يريد الإسهام في الكتابة للسلسلة ، ان الموضوعات المطلوبة هي الموضوعات الجادة التي تخدم الفكرة الإنسانية والبعيدة عن مزالق السياسة ، ومظان الجدل والمهاترة .

نسأل الله التوفيق والسداد ...

وأن تكون جهودنا المتواضعة خالصة لوجهه ....

* * *

الكتاب القادم

ممتاز يشمل الرقمين ٥٣،٥٤

القرآن والسلوك الإنساني

بقلم : محمد عبد الله السمان